المحاضرة العاشرة بعنوان

الدراسات الاجتماعية عند أجست كونت

الجزء (2) تتمة الفصل التاسع

عناصر المحاضرة

ثالثاً: بحوثه في الديناميك سوسيال.

رابعاً: بحوثه في الستاتيك سوسيال.

خامساً: فضل كونت على الفلسفة والدراسات الاجتماعية.

سادساً: نقد آرائه بصفة عامة.

ثالثاً: بحوثه في الديناميك سوسيال(الاجتماعي).

إن موضوع الديناميك هو دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذى تخطوه الإنسانية في تطورها، وتدور بحوثه الديناميكية حول نظريتين أساسيتين فهناك نظريته في قانون الأدوار الثلاثة ونظريته في تقدم الإنسانية.

نظرية قانون الأدوار (الحالات) الثلاثة

- وخلاصته:

أن العقل الإنساني أو التفكير الإنساني قد انتقل في إدراكه لكل فرع من فروع المعرفة من الدور الثيولوجي (الديني اللاهوتي) إلى الدور الميتافيزيقي وأخيراً للدور الوضعي أو العلمي.

ويقصد كونت بالدور الثيولوجي (الديني) أن العقل كان يسير على أسلوب الفهم الديني وأنه كان يفسر الظواهر بنسبتها إلى قوى مشخصة مريدة خارجة عن الظاهرة نفسها كالآلهة والأرواح والشياطين وما إليها.

ويقصد بأسلوب الفهم الميتافيزيقي(التجريدي)أن العقل كان يفسر الظواهر بنسبتها إلى معان مجردة أو قوى ميتافيزيقية وعلل أولي لا يقوى على إثباتها ، ويقصد بأسلوب الفهم العلمي أن العقل يذهب في تفسيره للظواهر بنسبتها إلى القوانين التي تحكمها والأسباب المباشرة التي تؤثر فيها.

نظرية التقدم الإنساني (الاجتماعي)

سيراً اجتماعياً نحو « تقدم » يفهم كونت من معنى كلمة هدف معين لا يمكن الحصول اليه بعد المرور بأدوار ضرورية محددة، أي أن السير الاجتماعي لا بد أن يكون خاضعاً لقوانين.

يرى كونت أن انتقال الإنسانية من مرحلة إلى أخرى يكون مصحوباً عادة بتقدم أو تحسين يبدو في مظهرين: تقدم حالتنا الاجتماعية ، وتقدم في طبيعتنا الإنسانية ، ويسمى المظهر الأول بالتقدم المادي.

hadeel alnafea

وهو في نظره أوضح ظهوراً وأسرع حركة وأسهل حدوثاً وأقرب تحقيقاً .ويتوقف هذا التقدم على مقدار معرفتنا بقوانين الظواهر الاجتماعية والتدخل بفضلها لكي تحقق الإصلاح والتقدم المنشود ، وفيما يتعلق بالتقدم طبيعياً فإنه يبدو واضحا في الناحيتين الثيولوجية والعقلية.

فقد أدى التقدم الثيولوجي إلى زيادة عمر الإنسان أو تقدم القواعد الصحية وفن الطب ، وأدى التقدم العقلي إلى كشف وسائل جديدة للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمات الإنسان، لأن العقل أو الذكاء عبارة عن آلة عامة يمكن استخدامها بصفة مطلقة في توسيع نطاق تدخل الإنسان وإشرافه على الكون ومظاهره.

ويقول كونت :أن المظهرين المشار إليهما لابد أن يسيرا جنباً إلى جنب لأن السعادة الإنسانية لا تعتمد فقط على تحقيق قدر من المنافع المادية المتعلقة بالوضع الاجتماعي للأفراد ولكنها تتطلب فوق ذلك ارتقاء واسع النطاق في المعايير العقلية والأخلاقية والجمالية، وما يتعلق بالحياة الاجتماعية.

رابعاً: الستاتيك سوسيال.

يقصد كونت بالستاتيك سوسيال دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها وباعتبارها ثابتة في فترة معينة من تاريخها ويدرس كذلك هذه المجتمعات في تفاصيلها وفي جزئياتها من حيث العناصر والنظم الاجتماعية ويرمي من وراء هذه الدراسة إلى الوقوف على القوانين التي تحكم تماسكها وتعمل على تضامنها.

ويبدأ كونت بحوثه بتحليل الضرورة الاجتماعية .حيث يعتبر حالة الاجتماع هي الحالة الطبيعية للإنسان .فالأفراد يولدون ومعهم غريزة ونيل فطري للعمل والتعاون مع الجماعة.

لذلك انتقد أوغست كونت نظريات التعاقد الاجتماعي.

لأنها تلبي الاحتياجات الإنسانية.

توصل كونت في تحليله الى أن المجتمع يتكون من ثلاثة عناصر: الفرد والدولة والعائلة

فالأسرة هي أول خلية في جسم التركيب الجمعي وهي ثمرة من ثمرات الحياة الاجتماعية، وقرر كونت مبدأ خضوع المرأة للرجل مع الاعتراف بسموها من الناحية العاطفية والوجدانية الضرورية للاستقرار في حياة الأسرة.

وتكلم عن الزواج واعتبره الأساس الأول لكل مجتمع، ولا يقبل فكرة الطلاق ويعتبرها من عوامل الإخلال بنظام الحياة الأسرية بصفة خاصة وحياة المجتمع بالإجماع ، ويعرف الأسرة بأنها اتحاد له طبيعة أخلاقية ، وأن الميل المتبادل بين الزوجين والعطف المتبادل بين الزوجين من جهة والأبناء من جهة أخرى.

والمشاركات الوجدانية الموجودة بين أفراد هذا المجتمع الصغير ، ثم تربية الأطفال والنزعة الدينية التي يغرسها الأبوان في أولادهم وللحقوق والواجبات المترتبة لكل عضو في الأسرة قبل العضو الأخر، كل هذه الأمور ترجع في طبيعتها إلى وظيفة الأسرة الأخلاقية.

وتطرق كونت إلى دراسة المجتمع فهو وحدة حية ومركب معقد أهم مظاهره التعاون والتضامن ، ويرى كونت أن مبدأ التعاون والتضامن هو الذى يسيطر على المجتمع ويحكمه ويسمى هذا المبدأ لدى المفكرين والمحدثين بمبدأ" تقسيم العمل وتوزيع الوظائف الاجتماعية."

ويرى كونت أن التضامن الاجتماعي لا يمكن أن يتحقق بصورة كاملة إلا إذا وجه المسئولون عنايتهم إلى إصلاح ثلاثة نظم اجتماعية أساسية وهى : نظام التربية والتعليم ، ونظام الأسرة ، والنظام السياسي في الدولة.

وبصدد إصلاح نظام التربية والتعليم يرى كونت أن المجتمع يحتاج إلى نظام من التربية الوضعية يحل محل دراسة الآداب والنظريات المجردة، ولقد قسم مراحل التعليم إلى ثلاثة وهى: مرحلة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة عالية وظيفتها إعداد الشباب لمواجهة حياتهم العملية وتوجيههم إلى حل المشاكل الاجتماعية ، ونصح بضرورة فصل السياسة عن العلم بمعنى أن يكون الطلاب بعيدين عن الأحزاب السياسية.

وبصدد إصلاح النظام الأسري ، فالأسرة الصالحة هي التي تشبع أفرادها عواطف حب الغير والتراحم والتضامن الاجتماعي، واعتبر الأم هي المسئولة عن إعداد الأطفال في المرحلة الأولى ، ويأمل كونت أن الأمهات اللاتي تلقين تربية وضعية صحيحة يتمكن من تعليم أولادهن والإشراف على تربيتهم في المرحلة الإعدادية الأولى بدلاً من ذهابهم إلى المدارس.

وبصدد إصلاح النظام السياسي تعرض كونت لوظيفة الحكومة وحللها وقرر أن هذه الوظيفة ليست سهلة الأداء ومقصورة على تنظيم البوليس أو ضمان سلامة الشعب ونشر الأمن .والحكومة هي أول الوظائف الاجتماعية وأهمها، وهي دليل على مبلغ تقدم المجتمع وهذا التقدم مرهون بنظام الهيمنة.

ووظيفة الحكومة في نظره تقوم على تحقيق مبدأ التضامن في المجتمع والحرص على وحدته ، ومعنى ذلك أن وظيفتها لا تقتصر على المصالح المادية فحسب بل تشمل كذلك الناحية الروحية ، فكما تعمل على تحقيق التضامن المادي فكذلك التضامن الروحي عن طريق حفظ الدين ورعايته وغرسه في قلوب الأفراد وأخذهم في هذا الصدد بما يحفظ للمجتمع دوامه واستقراره.

ودرس كونت الناحية الاقتصادية في المجتمع فقد لاحظ أن السير الصناعي كان في اطراد دائم وزيادة مستمرة، وكان هذا النشاط سبباً في متاعب ، فدرس كونت صنوف الشقاق بين رؤوس الأموال والأيدي العاملة.

وعرض كونت للنظريات الاقتصادية السائدة ونقدها جميعاً ونادى بضرورة التدخل من جانب الحكومة لكي تقيم توازناً معقولاً بين الأهداف الفردية وبين ما ينبغي أن تكون عليه المعاملات الاجتماعية.

ودرس كونت الناحية الأخلاقية في المجتمع ورأى وجوب قيام علم وضعي هو" علم الأخلاق "، ويرى كونت أن علم الأخلاق الوضعي سواء من ناحيته النظرية أو العلمية لا يمكن أن يقوم إلا إذا تأسيس علم الاجتماع أولاً ، لأن هذا الأخير يغذي بمبادئه العامة ومادة بحثه ومنهجه والموضوعات الأساسية التي يعالجها.

أما الناحية الدينية في المجتمع فقد وضع لنا كونت بجانب النظم السابقة نظاما دينيا جديدا وهو الدين الوضعي ويدور هذا الدين حول عبارة الإنسانية كفكرة، أي أن فكرة الإنسانية تحل في نظره محل فكرة" الله "في الديانات الرواقية الرومانية المعروفة.

ورسم كونت لهذه الديانة طقوسا ونظما تناسبها ,ودعا جميع أفراد الجنس الإنساني أن يتجهوا إليها بالعبادة والتقديس.

ووظيفة هذه الديانة كما يراها كونت تحقيق وحدة دينية في العالم بأسره.

لأن جميع الأفراد سيتجهون بقلوبهم وعقولهم نحو فكرة واحدة ومركز واحد فيبطل الشرور والآثام وتنتقي المنازعات والحروب وتعيش الأجناس البشرية الثلاث: الجنس الأبيض والأصفر والأسود التي تمثل في الإنسانية الذكاء والعمل والعاطفة في عصر ديني ذهبي.

خامساً: فضل كونت على الفلسفة والدراسات الاجتماعية

سوف يتضح لنا ما يستحقه كونت من التقدير والاهتمام بمجرد عرض مبسط للنتائج الفلسفية والاجتماعية العامة التي انتهى إليها من دراساته الطويلة وبحوثه المفضلة.

وقد لخص كونت نفسه هذه النتائج في كتابه: "دروس في الفلسفة الوضعية "، أن أول نقطة جديرة بالتقدير في فلسفة كونت هي تطبيق منهج البحث الوضعي على الظواهر الاجتماعية.

والواقع أننا إذا كانت إلى الغاية التي قصد كونت الوصول إليها، فإنه من الصواب أن نقرر أن هذه الغاية هي «السياسة»

ولا أدل على ذلك من كتابه الثاني المعروف: «بالسياسة الوضعية»

ولكن إذا نظرنا إلى هذه الغاية في ذاتها من حيث هي وجدناها بالضرورة عبارة عن مجهود نظري فلسفي لأن خلق علم الاجتماع الوضعي كما شرحه كونت حقق الفكرة التي يسميها" كانت" (كلية التجربة)

وبدون الدخول في تفاصيل البحث فالمعروف أن محاولات كثيرة قد بذلت في سبيل تحقيق هذه الفكرة قبل كونت ولكن أصحاب هذه المحاولات كانوا يعتقدون أن هناك تمييزا جوهريا بين الفلسفة من ناحية وبين المعرفة العلمية من ناحية أخرى ولذلك باءت محاولتهم بالفشل.

ويرى كونت أن القوانين العقلية مثل غيرها من القوانين لا يمكن كشفها إلا عن طريق ملاحظة الظواهر والمنهج الوحيد الذى يليق بملاحظة الظواهر العقلية هو المنهج الاجتماعي بجميع أركانه لأن هذه الظواهر العقلية من طبيعة لا يمكن الوقوف عليها ولاسيما من الناحية الديناميكية إلا في تطور الإنسانية واستعراض هذا التطور ودراسته.

إن موقف كونت في تاريخ الفلسفة موقف جدير بكل تقدير وإعجاب لأنه لما رأى الفلسفة كما تصورها أصحابها حتى القرن التاسع عشر لا تستطيع أن تتكيف وتأخذ خواص العلم ، وانه حاول كثيرا كما تدل تعبيراته الخاصة أن يحول العلم إلى فلسفة .ولكن كيف يتم هذا التحول مع محافظة العلم على خواصه النوعية؟

إن هذا التحول إنما يقوم بكل بساطة في إعطاء العلم الخاصية الفلسفية الوحيدة التي لم تكن له من قبل وهي خاصية الكلية، فإن العلم باكتسابه خاصة جوهرية جديدة لا تجعله يفقد أية خاصة جوهرية من خواصه السابقة التي هي عبارة عن جوهرة وأساسه

ولكن يبدو للباحث المتعمق أن الذى يتحول ليس هو العلم ، لأن العلم يبقى كما هو كذلك بذاته مع إضافة خاصة العمومية والكلية إليه، فيصبح عاما بعد أن كان خاصا ولكن الفلسفة هي التي تفقد مركزها الممتاز لأن العلم سوف يشاركها في عموميتها وكليتها.

ويقصد كونت من ذلك أن منهجه وفلسفته سوف تغنى عن هذه النظريات في المستقبل وسوف تؤدى الوظائف العقلية التي كانت تؤديها النظريات الفلسفية الميتافيزيقية.

إن كونت اكتشف علم الاجتماع لأن هذا العلم عمم المنهج الوضعي الذى أصبح ممتداً إلى آخر مظهر من مظاهر الظواهر الكونية ، ومتى تم تكوين هذا العلم فإنه يكتسب صفة العلم الكلي ومن ثم صفة الفلسفة

فمن ناحية ترتيب العلوم نجد أن علم الاجتماع هو سادس علم وآخر العلوم الأساسية ، ومن جهة أخرى فهو العلم الوحيد من حيث أن العلوم الأخرى يمكن اعتبارها ظواهر اجتماعية كبري ، فهو يتضمن حقائق العلوم السابقة عليه لأن هذه العلوم تمهد له وتؤدي إليه.

على هذا النحو يمكن تحويل العلم إلى فلسفة ، ويمكننا الآن أن نبحث علاقة فلسفة كونت الوضعية بما عداها من الفلسفات التي سبقتها أو المعاصرة لها ، وموقفها إزاء هذه الفلسفات.

أن كل نظرية فلسفية جديدة لابد لها أن تحقق هدفين أساسيين:-

1. أن تضع أصولها ومبادئها الأساسية.

2. أن تبحث وتناقش النظريات السابقة والمعاصرة لها.

ولهذا السبب فإن الفلسفة الوضعية هي الفلسفة الوحيدة التي كانت عادلة جداً في نقد النظريات المعارضة لها سواء كانت سابقة عليها أو معاصرة لها.

أن هذه الفلسفة لم تنتقد الماضي كله والحاضر ولم تعلن الحرب على النظريات السابقة عليها بل بالعكس ، لقد وضعت كل النظريات في مكانها في التاريخ العام لتطور التفكير الإنساني ، وقد وضعت نفسها في مكانها في هذا التاريخ غير أن الفلسفة الوضعية تعتبر نفسها وريثة جميع الفلسفات وعلى الأخص الفلسفات التي تتعارض معها في المبدأ.

ولقد كان لحلول الفلسفة الوضعية محل الفلسفة الميتافيزيقية اثر واضح في تكييف النظريات الفلسفية ، فإنها تغيرت من وجهة النظر الميتافيزيقية إلى وجهة النظر الوضعية ، وكان لهذا الإحلال أيضا أثره في المعاني والمصطلحات الفلسفية التي تغيرت مضامينها من الأسلوب الميتافيزيقي المطلق إلى الأسلوب الوضعي النسبي.

فمثلا إذا كانت الفلسفة الميتافيزيقية تميز بين فكرتي القوة والفعل، فإن الفلسفة الوضعية أصبحت تميز بين وجهتي النظر الاستاتيكية والديناميكية ، وإذا كانت الفلسفة الميتافيزيقية تفترض مبدأ الغائبة أو القضاء والقدر فإن الفلسفة الوضعية أصبحت تفترض فكرة جديدة عبرت عنها بمبدأ شروط الوجود.

وإذا كانت الفلسفة الميتافيزيقية تخضع العالم لقوى خارقة مطلقة فإن الفلسفة الوضعية تخضع الإنسانية في تطورها لقانون عام.

<u>سادساً: نقد كونت</u>

هناك الكثير من المآخذ والانتقادات التي سجلت على فلسفة كونت الاجتماعية ويمكن أن نجملها في النقط الآتية:-

1. يبدو أن الأسباب التي دعته إلى إنشاء علم الاجتماع أسباب خيالية من وحى تفكيره الخاص ولا تمت بصلة إلى حقائق الأمور، فليس بصحيح كما يزعم أن جميع الناس في عهده كانوا يفهمون ظواهر الطبيعية فهماً علمياً وضعياً لأن هذا الأسلوب من الفهم كان ولا يزال مقصوراً على المستنيرين من الناس الذين أتيح لهم أن يسيغوا مسائل العلوم وليس بصحيح كما يزعم أن جميع الناس في عهده كانوا يفهمون ظواهر الاجتماع فهماً غير وضعي ، فكثير من هذه الظواهر كان موضوعاً للدراسة العلمية وتوصل الباحثون بصدد هذه الظواهر إلى كشف القوانين العلمية.
2. نبه كونت إلى قواعد منهجية لها قيمتها العلمية غير أنه لم يلتزم بهذه القواعد في دراسة موضوعات العلم ، فانحرفت انحرافا ظاهرا ولذلك وصل إلى قوانين فلسفية شخصية بدلا من أن يصل إلى قوانين مستخلصة من طبائع الأشياء.
3. فيما يتعلق <u>بقانون الأدوار الثلاثة</u> نجد أن كونت درس الإنسانية بوصفها كلاً لا يتجزأ مع أن الشيء الملاحظ هو وجود مجتمعات جزئية مختلفة فليست هناك إنسانية ولكن هناك مجتمعات إنسانية ، وليس كما يزعم في قانونه : أن الإنسانية تسير كلها على وتيرة واحدة في فهم الأشياء، وليس بصحيح كما يزعم أيضا أن العقل الإنساني قد سلك في فهمه للظواهر الطرق الثلاث مرتبة على الصورة التي ذكرها

فقد فهم الأقدمون كثيرا من الحقائق الرياضية والفلكية فهما وضعيا قبل ظواهر العلوم الأخرى ، ولا تزال بعض المجتمعات تفسر الحقائق العلمية في نظرنا تفسيراً دينياً وبعضها يفسرها تفسيرا ميتافيزيقيا مع أن هذه وتلك في مرحلة تاريخية واحدة.

4. يرجع كونت تطور الظواهر الاجتماعية إلى تطور التفكير مع أن تطور شئون المجتمع ينجم عن عوامل كثيرة تتفاعل آثارها وتتحدد نتائجها ، وتطور التفكير ذاته ليس إلا مظهرا من مظاهر تطور المجتمع ولا يعتبر هو نفسه سببا لهذا التطور.
5. انتهى كونت من دراسة" الستاتيك سوسيال "إلى قانون التضامن وملخص هذا القانون أن مظاهر الحياة الاجتماعية يتضامن بعضها مع بعض ، كذلك نظم المجتمع وعناصره تعمل متضامنة لتحقيق استقرار الحياة الاجتماعية ودوام بقائها.

على انه لم يدرس الفكرة موضوعيا ولم يرجع بصددها إلى التاريخ أو إلى التحليل المادي.

لم يجعل كونت لها سندا من التاريخ أي انه لم يدرسها دراسة علمية ولم يحللها تحليلا ماديا هذا إلى أنها بالصورة التي عرضها تتناقض مع بعض أجزاء فلسفته.

6. وضع كونت دينا جديدا هو الدين الوضعي أو عبادة الإنسانية .والدين شأنه كشأن أي نظام اجتماعي لا يوضع وضعا ولا يتفق علية الأفراد إداريا ولكنه ينشأ تلقائيا من طبيعة الحياة الاجتماعية ووفقا لرغبات العقل الجمعي.

والعجيب أن كونت ينتهي من تحليل فكرة الإنسانية وتحديدها إلى القول بأن الإنسانية الحق إنما تتمثل في مجموعة من الأبطال والعظماء والعقلاء الذين برزوا في تاريخ الإنسانية ويستحقون التكريم بفضل ما أدوه من أعمال التقدير والإعجاب.

أي أن الدين الوضعي ينتهي في أخر تحليله إلى: "إحياء ذكرى الرجال العظماء والفلاسفة الذين أدوا أعمالا جليلة وخدمات لا تقدر للجنس الإنساني".

وغنى عن البيان أن الاتجاه بالعبادة والتقديس إلى طائفة من بنى الإنسان فكرة غريبة في حد ذاتها ولا يجد كونت مؤيدين له في قبولها والإيمان بها، والواقع أن كونت كان بعيداً عن الاجتماع الديني في تقرير ذلك .فقد أغرق في تصورات الدينية وملأ صدره بآمال صوفية لا سبيل الى تحقيقها .ولم يستطيع أن يقيم الوحدة الدينية التي كان ينشدها من وراء دينه الوضعي، فلم تتجه الأجناس الثلاثة (الأبيض والأصفر والأسود التي تمثل الذكاء والعمل والعاطفة) بالعبادة والتقديس إلى محراب واحد ، ولم تقصد إلى كعبة واحدة وندين بدين مشترك.

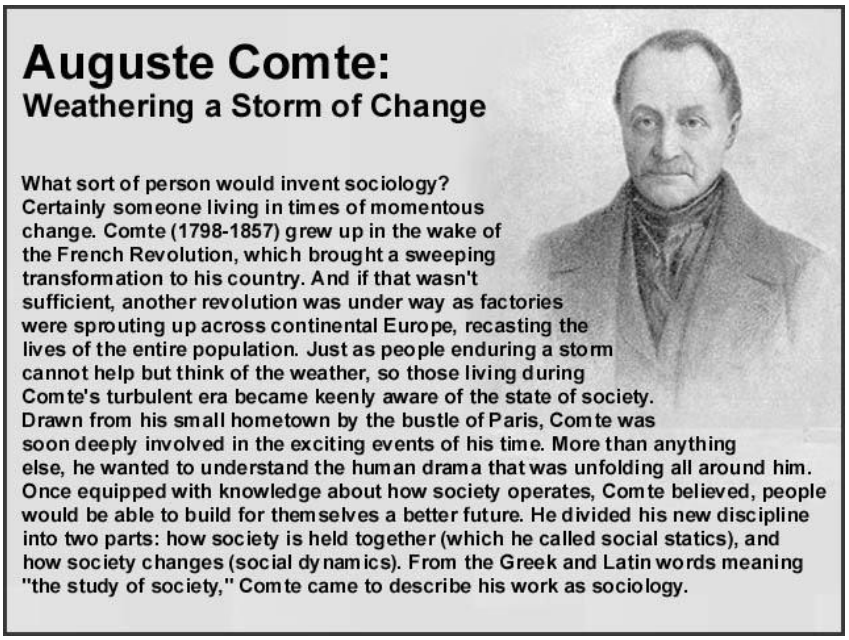

hadeel amara